لا تيأسوا.. ولكن (*)

جرت سُنَّة الله في هذا الكون ـ وسُنَّة الله ماضية ـ أن تكون شدة الكرب، وأهوال الخطوب، وما يكون من جولة الباطل العاتي، تمحيصاً لأبناء الأمة في إيمانهم، ومقدار استمساكهم بدعائم النصر التي تتصل اتصالاً ثابتاً بأصالة أمتهم ومبادئها التي أثبتت وجودها، ورسمت أبعادها في التاريخ أحقاباً متطاولة من الزمن.

وهذا التمحيص في الواقع، هو الذي يكشف عن مقدار اليأس الذي ينزل بكلكله الرهيب على بعض القلوب، فتصبح وكأنها خاوية من الأمل، فاقدة لما لا يمكن أن يعوَّض، مُعْرضة عن سلوك الأسباب التي بها تكون الحركة ويكون التحويل.

ولقد تكون هذه الأيام العصيبة في حياة أمتنا أنموذجاً للتمالؤ الخبيث والتحالف الماكر الذي ينصب أذاه على طريقنا صباح مساء، مما يدخل على كثير من النفوس هذا اليأس القاتل ـ والعياذ بالله ـ.

ولكن هذه الحقيقة الماثلة: لا تعني أن ننسى أن الأيام يداولها الله بين الناس، وأن قدرة النفوس على الصبر واحتمال الأذى في سبيل الوصول إلى غايات الأمة الكبار: إنما تظهر وتثبت وجودها في مثل هذا المناخ،

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد التاسع، السنة التاسعة، ذو القعدة ١٣٨٨هـ، شباط ١٩٦٩م.

وبالنتيجة يفوز مَنْ يفوز، ويتخلف من يتخلف ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وهذا الذي نقول، ليس أمراً عابراً في حياة الأمة، وإنما هو واحد من مرتكزاتها الواقعية المشرقة، ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾. فهذه الآية من سورة (آل عمران)، جاءت بعد آيات وردت في معرض الحديث عن (غزوة أُحُد) تحرِّض المؤمنين على الجهاد، وتدعوهم إلى الصبر والثبات، وتُسلِّيهم عما أصابهم يوم أُحُد، فلا ينبغي أن يضعفوا بالذي نالهم من عدوهم في ذلك اليوم عن القتال في سبيل الله، كما لا ينبغي أن يحزنوا على مَنْ قُتل منهم؛ لأن هؤلاء القتلى أحياءٌ عند ربهم يرزقون؛ فلئن نال العدو منهم يوم (أُحُد) فقد نالوا منه يوم بدر، والذي مُني به العدو من الخسائر في (بدر) لم يثبطه عن العودة إلى القتال يوم (أُحُد)، فالمسلمون أولى أن لا يضعفوا، وأن يكونوا على اليابسة في عزيمتهم على معاودة القتال؛ إذ إنهم يرجون من الله سبحانه وتعالى ما لا يرجو أولئك، وهذا كاف شافٍ مع الإعداد المستطاع لأن يطرد المؤمن اليأس، ويباعد بينه وبين التواكل والخنوع، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

إنه المنطق الذي يتفق مع طبائع الأشياء. وانظر معه المرتكزات النورانية في هذه التربية وذلك التوجيه، ففي الحوادث تمييزٌ وتمحيصٌ، والقتال سبيل الشهادة، والظالمون لا يحبهم الله، والكافرون لهم المحق، والمؤمنون في مرضاته وهم أحياء، وإذا لقوا وجهه فهم سعداء شهداء.

وهكذا تبدو واقعية البناء والتكوين في حياة هذه الأمة؛ فالأمور لا تسير في طريق التعمية والألغاز، ولكنها تعطي لكل قضية ـ جلَّت أو صغرت ـ مكانها الطبيعي من سير الحوادث، وانعكاسها في النفوس والقلوب، كل ذلك في ضوء الواقع الذي تصحبه المنطلقات الإيمانية الصحيحة التي عليها يقوم البناء، ومن مواقعها يصدر المؤمن في تصرفاته وسلوكه.

على هدي هذا الحقائق: ترى أنه لا مكان لليأس في قلب المؤمن، بل صبرٌ وثباتٌ ومثابرة، والصبر هنا ـ في مغزاه ومعناه ـ أمر على غاية الأهمية، في جعل المؤمن قادراً على الحركة مهما كانت الظروف، فهو صبرٌ على تكاليف ما ابتلي به هذا المؤمن، صبرٌ على معاودة الخطوة الجادة دون نظر إلى الوراء، وندب على ما كان من الخوف والجوع ونقص في الأموال أو الأنفس أو الثمرات ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾. وكانت البشارة الرائعة ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾.

ولكيلا يتسلَّل إلى بعض النفوس توهُّمُ أن الصبر معناه الرضا بالهوان، والإقامة على الضَّيم، أعقبَ الآيات السابقة قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن**

﴿تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وفي آية أخرى يقول جلَّ وعزَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

فهو سبحانه يريد أن يميز الثابتين على الإيمان ـ الذي كان من مقتضياته الصبر على مكاره الجهاد ـ من غيرهم، والتمييز هو المراد بالعلم هنا، إذ إن إطلاق العلم على التمييز مجازٌ من إطلاق اسم السبب على المسبَّب.

من أجل ذلك يمكن القول بأن الحديث عن اليأس وإبعاد شبحه في حياة المسلم، ليس كلاماً سياسياً موقوتاً يرتبط بظرف معين، ولكنه أمرٌ مرتبطٌ بعقيدة المسلم من حيث هي، فإذا وجد العمل الذي في مقدوره أن يعمله، وأعدّ العدة التي استنفد لها جهده المستطاع دون بُخل بكل ما يمكن تقديمه، وكان راسخاً في قلبه أنَّ وعدَ الله لا يتخلف؛ فهو ناصرنا إن نحن نصرناه، وأن طبائع الأشياء دلَّت على أن الأيام دُوَلٌ، وأن الحياة لابد فيها من الصراع بين الحق والباطل، إذا توفر ذلك كله كان معناه الثقة والثبات، بل الإصرار العنيد على المتابعة والتطلُّع إلى ما وراء الحوادث، وتخطي سحابة عابرة قد تمر في حياة كل أمة من الأمم.

وأنت واجد في القرآن الكريم ـ مع الذي سقناه من الآيات، وحديث رسول الله صلوات الله عليه وسيرته ـ تأكيد الذي نقول؛ ففي سورة (يوسف) يجري الحديث عن يعقوب ـ عليه السلام ـ وأولاده، بعد الذي كان من مصاب هذا النبي بولده يوسف ثم بأخيه، فيقول جل وعلا في تصوير

هذه المرحلة من مراحل وقائع القصة: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. وتعبير ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ معناه ـ والله أعلم ـ لا تقنطوا من فرَج الله وتنفيسه للكرب الذي نحن فيه؛ لأن معنى الرَّوْح في الأصل هو التنفُّس ثم استعير ـ كما يقول العلماء ـ للفَرَج.

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن الذي ينهى أولاده عن اليأس والقنوط من رحمة الله بتفريج المصاب وتنفيس الكرب: هو نبي من الأنبياء، فكلامه في موقعه من الهداية ومرتكزات الإيمان والعقيدة.

ثم إن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، فلئن كان الكلام مسوقاً في معرض واقعة خاصة فإن اللفظ عام ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾. وليس في هذا التوجيه من يعقوب ـ عليه السلام ـ ما ينافيه في شرعتنا نحن المسلمين، بل هنالك ـ كما سلف ـ ما يؤيده ويقويه ويثبته حتى يمكن القول بأنه شرع لنا في ميدان ارتباط المؤمن بإيمانه، وأن من مقتضيات الإيمان أن لا ييأس من رَوْح الله؛ لأنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون؛ خصوصاً أن خط الأنبياء واحد في مجال الإيمان ومقتضياته.

وهذا الحصر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ مما يخيف المؤمن الصادق، ويهز كيانه نتيجة ضعفه بوصفه

إنساناً، ويقف وقفةَ الصدق والوضوح، كيما يكون بصيراً على نفسه في الطريق التي يبغي سلوكها، فإما طريق مؤدية إلى الكفر ـ والعياذ بالله ـ وإما طريق تزيده إيماناً بما عند الله، وثقة بفضله، وأن وعده جل وعلا لا يتخلف، وأنه هو ـ بوصفه مؤمناً ـ يفترض فيه أن يسلك هذه السبيل.

ولقد نعى الله تعالى على أولئك الذي يتصفون بشدة اليأس والقنوط ـ إذا سُلِبَتْ منهم النعمة ـ من أن يعود إليهم ما سُلب منهم، والكفران لما سلف منهم من التقلب في النِّعم.. ويتَّسمون إن عادت إليهم النعمة، بالمبالغة بالفرح والفخر اللذين يلهوان عن الحق، ويعبِّران عن الغرور والبطر والتعاظم على الآخرين ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ**﴾ وفي دعوة إلى أن يتوجه المسلم غير هذه الوجهة، جاء الاستثناء المنقطع ليقرر المغفرة والأجر الكبير عاقبةً لأولئك الذين يصبرون ويعملون الصالحات، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾. أي: لكن الذين صبروا...

وفي صورة أخرى للمعنى الذي نشير إليه تقرأ في سورة (فصِّلت) قوله الله جلَّ وعزَّ: ﴿**لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ**﴾ فهذا إخبار يحمل في ثناياه تبكيت هذا الخُلق، إن هذا الإنسان لا يفتر ولا يملُّ من دعاء الخير، ولكن إذا أصابه الشرُّ فهو يؤوس قنوط من فضل الله ورحمته، مع أن الذي لا يملُّ ولا يفتر عن طلب الخير منه، هو القادر على أن

يفرِّج الكربَ ويُذْهب الشرَّ. وكان الجمع في الآية كما ترى بين وصفين جاءا على صيغة المبالغة (يؤوس قنوط).

ولما كان اليأس عملاً من أعمال القلب ـ وهو انقطاع الرجاء من الخير ـ ضُمّ إليه ما يظهر في كثير من الأحيان على صورة المرء وتصرفاته، وهو التضاؤل والانكسار، وعبِّر عنه بالقنوط.

ألا إن هذا الذي يعرض له القرآن من ذمِّ هذا الخُلق يعطي مزيداً من التأكيد للمعنى الذي ندير عليه الحديث؛ لأن اليأس يبدو أشد خطراً إذا خرج عن صعيد الفرد في أموره الخاصة إلى صعيد الأمر العام وشؤون الأمة. والعياذ بالله تعالى.

وما أشد احتياجنا في هذه الليالي الحالكات: إلى أن نتدبَّر ما كان من صنيع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تربية أصحابه الذين خاض بهم معركة الحق على صعيد الإنسان على وجه هذه المعمورة كلها، ما أشد احتياجنا أن نتدبر صنيعه صلوات الله عليه ـ وسنتهُ ترجمان القرآن الكريم وبيانه ـ وإعطاء الآيات أبعادها العملية في الكليات والجزئيات على صعيد الشرعة في التربية والإعداد. فقد روى البخاري في صحيحه عن خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي الله عنه ـ وهو من عيون رجال العهد المكي، وما أدراك ما العهد المكي صبراً ومصابرة ـ قال: «شكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: [**قد كان مَنْ قبلَكم يؤخذ الرجل فيحفَر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويُمشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه**

وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه، والله لَيُتِمّنَّ الله هذا الأمرَ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون].

ومن هذا الباب ما كان منه صلوات الله عليه حين بشَّر سراقة بن مالك بسوارَي كسرى وهو في طريق هجرته إلى المدينة.

فأين موطن اليأس من هذه الساحة النورانية الرائعة، المهاجر صلوات الله عليه، وهو في طريقه إلى مُهَاجَره، تتخطى نظراته السنين، وكأنه يحرك بيده صلوات الله عليه الجيوش التي وجَّهها عمر وقادها سعد بن أبي وقاص إلى العراق، وعملت فتحاً للأرض وفتحاً للقلوب، حتى هزت عرش كسرى، وقوّضت ملكه، وكان من آثار ذلك ما كان، وتسلَّم سراقة ما وُعد به قبل عدد من السنين.

وأوضح من هذا: ما أورد ابن كثير في التفسير، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعدي بن حاتم حين وَفَدَ عليه: [**أتعرف الحيرة**]؟ قال: لم أعرفها ولكن سمعت بها، قال: [**فوالذي نفسي بيده، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوفَ بالبيت في غير جوار أحد، ولتُفتحَنَّ كنوز كسرى بن هرمز**] قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: [**نعم، كسرى بن هرمز، وليُبذلَنَّ المال حتى لا يقبله أحد**]. قال عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمَنْ فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قالها.

رحم الله عدياً، ورحم أول من تحققت الثالثة في عهديهما: عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز، ورضي عنهم وأرضاهم!

وفي طرد صارم لكل عوامل اليأس ببصيرة نبوية محمدية كان ـ فداه أبي وأمي ـ يقول في شأن سدَنة الكفر والوثنية، أولئك الذين ناصبوه العداء من أول يوم، ولم يرقبوا فيه إلا ولا ذِمَّة، كان يقول: [**عسى الله أن يُخرج من أصلابهم مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر**]. وصدق الأمل، وتحققت النبوءة، وكان من فضل الله أن كثيراً من أولئك الذين شيعتهم اللَّعنات، وتوسَّدوا التراب كافرين مشركين، رفع أولادهم راية الإسلام عاليةً كريمة في العالمين، بعد أن طهَّروا الأرض من أدران اللاَّت والعُزَّى ومَنَاة.. وغيرها من معبودات الآباء والأجداد، وكانوا حُرَّاساً أمناء لعقيدة التوحيد، التي سقط أولئك الآباء والأجداد صرعى الحرب معها تحت راية الجاهلية في معارك دارت رحاها ضد دعوة الإسلام، وفي سبيل القضاء عليها.

ولم يكن بدعاً ما نراه من مدلولات النصوص القرآنية، وسيرة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، من اقتران البعد عن اليأس بالعمل النابع من الثقة بعون الله وفضله، والامتثال لما أمر في كثير من المواطن بالإعداد والاستعداد ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا**﴾ ونعى على أولئك المنافقين الذين ركنوا إلى الدِّعة، ورضوا بالدَّنيَّة من الأمر؛ فجلُّ همهم البعد عن المكاره، والفوز بالغنيمة دون تضحية أو عمل ﴿**وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ**

شَهِيداً ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

وفي تقرير لما يجب أن يكون خُطة المؤمن وديدنه: قال سبحانه معقباً على ما مرّ: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ.. ﴾ وبشَّر الذين يرتقون إلى هذا المستوى، مرتفعين عن الدرْك الذي وقع فيه أولئك، ناجين من الوهْدَة التي مرَّغهم بأوحالها ضعف الإيمان، وما يعانون من مرض القلوب، بشَّرهم بالمغفرة والأجر العظيم على كل حال، فقال جلَّ وعزَّ: ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

وفي سورة (النور) تقرأ ـ فيما تقرأ ـ وعد الله بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدِّين، وتبديل الأمن من بعد الخوف؛ فترى أموراً ثلاثة هي على غاية الأهمية في تثبيت ما يدور حوله الكلام:

أ- فالوعد كان أولاً للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ وهؤلاء المؤمنون كان مقتضى إيمانهم أنهم يعبدونه ولا يشركون به شيئاً، ومَنْ خرج عن هذه الدائرة فله سوء العاقبة، وذلك قوله تعالى في تتمة الآية: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

ب- الأمر الآخر: أنك ترى آية الوعد تجيء عقب آيات تدعو إلى الطاعة والاحتكام إلى الله ورسوله، وتفضح عمل المنافقين الذين كانوا يُظهرون

الإيمان، ويبطنون الكفر؛ ذلك لأنهم إذا دعو إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين، فهم في منأى عن أي برهان يُثبت صحة إيمانهم واعتقادهم؛ فلا يطيعون رسول الله في غزوة، ولا يخرجون صادقين لقتال، ويحاولون أن يستروا ذلك بأيمان كاذبة مفضوحة. في هذا السياق تجري الآيات حتى نقرأ قبل آية الوعد بالاستخلاف... مباشرة قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾ فرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه أمانة تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وعلى من يدعوهم قبول ذلك والطاعة والقيام بمقتضاها.

جـ - وترى في سبب النزول ما يعطي المؤمن مزيداً من الطمأنينة، والبعد عن اليأس، ومضاعفة القدرة على الحركة مهما كانت الصِّعاب، ما دام ذلك تحت الراية التي أعطى موثقاً على نفسه بالثبات على مدلولها، والعمل في ظلها.

فقد أمضى رسول الله وأصحابه الأولين في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعون إلى الله الواحد، وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً، وهم في رهبة وخوف، وترقُّب دائم، ولا يُؤذن لهم بالقتال، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة، حيث تركوا كل شيء من متاع الدنيا في سبيل الله وهاجروا. وهناك في مُهَاجَرهم المدينة أمرهم الله بالقتال، فكانوا بها دائماً في حالة حرب مع الأعداء، فكانت المعارك سجالاً، والنفوس لا تظفر بالأمن، فصبر

المسلمون على ذلك ما شاء الله لهم أن يصبروا، وأروا الله من إيمانهم وثباتهم، ما يعزُّ في التاريخ نظيره. يقول العلماء: ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله، أبدَ الدهر نحن خائفون هكذا؟! أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة**]، وأنزل الله هذه الآية ﴿.. **وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**..﴾.

وصدق الله، وكان تحقيق ذلك. ووعد الله لا يتخلف، وهو سبحانه المنان المتفضل ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾.

ولكن لابد من الالتزام الصادق الذي يعقب هذه الثمرات، ويجعل الأمة أهلاً لنصر الله وتأييده وتمكينه، روى الإمام أحمد بسنده عن أُبَي بن كعب قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**بشّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب**].

ألا إن حقاً على هذه الأمة، وهي الآن على أبواب الحج والعمرة، ووفود الله تغذ السير لتؤم البيت الحرام حاجَّةً داعيةً ملبيةً.. إن حقاً على هذه الأمة وما دلت عليه سُنَّة رسولها صلوات الله عليه وسيرته المطهرة في طرد اليأس، واقتران ذلك بالعمل الجادِّ الحازم والثقة بما عند الله، وأن يكون لها من الحوادث التي اقضَّت المضاجع، حافز عودة صادقة إلى الله، الذي

تسعى وفودها إلى بيته الحرام، وفي ذلك ما فيه من إزالة الغشاوة التي رانت على كثير من القلوب، وفيه ما فيه من اليقظة الإيمانية، التي تباعد عن اليأس، وتدفع إلى العمل، وتعيد إلى الحظيرة ما تفلَّت، وترد الحق إلى أهله وذويه. وإن الله بالغ أمره لا محالة، وكل شيء عنده بحسبان.

ومن العبث العابث أن نكون أمةَ الإيمان والقوة والثقة بما عند الله، ونظل غافلين أو متغافلين عن منابع القوة والأيد.

والله المسؤول أن يجعل الرحلة إلى بيته الكريم، حيث مرابع الهدى، والأرض التي كانت مهبط الوحي، وموئل دعوة الإسلام، وميدان الحركة لرسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ. أن يجعل من هذه الرحلة المباركة بدء انطلاقة جديدة إلى إزالة الركام، والإعداد الصحيح حتى ننتهي إلى النصر المؤزر. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

في رحاب البيت (*)

لقد شاء الله ـ بعظيم حكمته ـ أن تكون أحكامه التي شرع لعباده طرائق للتقوى والفلاح، وأن يكون هؤلاء العباد ـ بما ابتعث فيهم من رسل، وما أنزل من كتب ـ على بينة من أمرهم في هذه الدار التي هي مزرعة الآخرة، وميدان التسابق؛ فكلٌّ يعمل على شاكلته بلا ألغاز ولا تلافيف، والفائزون الفائزون هم أولئك الذي يدركون حكمة الحكيم فيما خلقهم لأجله، وهو سبحانه لا يظلم مثقال ذرة في الأرض والسماء ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

وكان الله ـ جلَّت حكمته ـ قد جعل من فريضة الحج بما تضم في ثناياها من شروط وأركان وواجبات ومندوبات، عنواناً على أمانة هذه الأمة فيما ورثت من ملَّة التوحيد ملَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وتعظيم الله العظيم في بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمناً، ومائدة من موائد الخير الإلهي، حيث يتجلى المولى سبحانه ـ وهو غافر الذنب وقابل التوب ـ على حُجَّاج بيته برحماته، فيستجيب دعاءهم، ويغفر خطاياهم، ويعطيهم عطاء القدرة والفضل والإحسان ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد العاشر، السنة التاسعة، ذو الحجة ١٣٨٨هـ، شباط وآذار ١٩٦٩م.

وإنك واجدٌ في كل شعيرة من شعائر الحج، وفي كل منسك من مناسكه حلقة من حلقات البر، وكأنها روضةٌ من رياض الجنة يرتع فيها المؤمن، فلا يكاد يفرغ من واحدة هنا حتى يسعد بتالية هناك.. وهكذا دواليك؛ وعندما تقول: عطاء الكريم المنان.. فلا بدع ولا غرابة، وعندما تقول: إحسان ذي الجلال والإكرام.. فحدِّث ولا حرج، فالكل في رحاب بيته، ومَنْ دخل بيته كان آمناً.

ولئن كان الحج فرصة نورانية يبث فيها المؤمن أشواقه وتطلعات قلبه التي يمدّها حب صادق لمولاه، بما يكون من دعاء خاشع مبلَّل بالندى، ودموع حرَّى يسكبها أهل المحبة الذين تذوب قلوبهم شوقاً إلى البيت؛ حباً برب البيت.. لئن كان الحج بهذه المثابة من هذه الناحية، فإن في كل لحظة من لحظات تلك الحقبة الزمنية المباركة عطاءً إلهياً يحسُّه ويتذوقه أولئك الذين تفتحت قلوبهم للنفحات، وانجلى عن بصائرهم ران الغفلة، وتسربلوا ثوب العبودية الخالصة لمولاهم في حقيقة الضرع والافتقار، كما تجردوا عن المخيط وتوشحوا ملابس الإحرام التي جاءت بها شرعة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وتنبيهاً لهذه المعاني الرائعة، التي تأخذ بالحاجِّ من نفسه وعاداته ومألوفاته، وما كان من شهوات ومغريات وتطلعات، تأخذه كليةً إلى مولاه، تستنقذه من الوهدة، تحرك مشاعره نحو ربه الكريم خالق الأرض والسموات.

أقول: تنبيهاً لهذه المعاني جاءت الشرعة بذلك الشعار السماوي العلوي: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك

والملك، لا شريك لك»، وصَحَّتْ النصوص بالحثِّ عليه، والدعوة إلى الإكثار منه مع رفع الصوت بهذا الإهلال، والإعلان البالغ، الفردي والجماعي، وحملت إلى المسلمين الكثير من البشائر على ذلك؛ فعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله سُئِلَ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: [**العجُّ والثَّجُّ**]. وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [**ما من ملبٍّ يلبِّي إلا لبَّى ما عن يمينه وشماله من حجَر، أو شجر، أو مدَرَ، حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا عن يمينه وشماله**]. وفي الحديث الصحيح عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [**ما من مُحْرِم يُضْحي لله يومه يلبِّي حتى تغيبَ الشمس، إلا غابت بذنوبه، فعاد كما ولدته أمه**].

كل هذا لما أن هذه التلبية التي تنطق بالاستجابة الخالصة مُعْلَنَةً واضحةً لله عز وجل ربِّ هذا البيت الذي يقصده المسلمون من كل فجٍّ عميق، حجاجاً ومعتمرين، من أعظم دواعي التأثير على النفس في تنبيهها إلى مقتضيات الإيمان، وإيقاظها لمقاصد الحج التي من أجلها ـ والله أعلم ـ جعله الله ركناً من أركان الإسلام، وتزويدها بزاد جديد من حرارة الإيمان، وعزيمة التخلُّص من الشوائب، والقدرة على تجاوز المعوِّقات، التي تحول بين المؤمن، وبين أن يكون حيث أراد الله له أن يكون، عقيدةً وعملاً، وأخذاً بكل الأسباب التي فيها يقظةُ الفرد، ومنعةُ الأمة وحصن الإسلام. ولك أن تقول بدموعك، أو تكتب بحُرقك وأشواقك وحنانك!!

إن المفروض بالمسلم عندما يُهِلُّ بقوله: «لبيك اللهم لبيك..» أن يصبح وكأنه إنسان آخر، فهو يخاطب سميعاً بصيراً ليس بينه وبينه حجاب، يخاطبه خاشعاً لجلاله، خاضعاً لسلطانه، معترفاً بتقصيره وزلاته، طامعاً بغفر الزلات، وغسل الخطيئات، فتثور الأشواق ويغلي فيها الدم والعروق، ويفيض الحنان، ويتحوَّل الكلام إلى دموع، ويزيد ما في القلب من هَيَمان، حتى كأن هاتفاً من الملأ الأعلى يرتِّل في أعماقه ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾ يرتلها ويزيده من جمالها وروعتها وعذوبتها حتى يعيش في ظلِّها بل معها، وذلك طبُّه ودواؤه ونواله إلى يوم يبعثون.

وهذا الذي تراه أو تقرؤه في أعين أولئك الذين سُعدوا بهذا الضياء الخاشع: يجعل من الحاج إنساناً قادراً على التلقي في كَل حركاته وتنقلاته وتصرفاته؛ لما أنه مظلَّلٌ بذاك الجو الروحاني الذي ملك عليه منافذ الرؤية والحسِّ وأحاط به، حتى غدا وكأنه من بشائر الجنة لأهل هذه الأرض.

وإذا كانت التلبية تبدو، وفي بعض مضمونها هذا الخير الذي نشير إليه بالخاطف من الحديث، فإن كل مَنْسك من مناسك الحج ـ كما هو واضح ـ روضةٌ من رياض الجنة، وطوبى لمن كان أهلاً لأن يرتع في رياض الجنة، طوبى له وحسن مآب، ويا حسرة على أولئك الذي يخسرون ما في جيوبهم، ويؤوبون من تلك الديار وقد خسروا مع المال حسن المثوبة، فكأنهم لم يدروا لماذا حطوا ولماذا ارتحلوا.

والقول بهذا ليس تألِّياً على الله تعالى، فهو الرحيم الرحمن، وهو المعطي الغني القادر الذي لا تنفد خزائنه من العطاء، ولكن الذي تعطيه نصوص

الشريعة أن رحمات الله لابد للمرء من أن يتعرَّض لها ويفتح قلبه لتنزلاتها، ويحمل نفسه على الصعود والمرتقى، حيث المغفرة والرحمة والعطاء.

ولعل في تعدُّد تلك المناسبات والشعائر؛ من طواف حول البيت، وسعي بين الصفا والمروة، ووقوف بعرفة، ومبيت بمزدلفة، ورمي للجمار، وتلبية، ونحر، وشدِّ الرحال إلى مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والصلاة فيه، وزيارته ـ صلوات الله عليه ـ والسلام عليه، وعلى أصحابه، والصلاة والدعاء في مواطن إجابة الدعاء، وسفح العبرات حيث تسفح العبرات، والتذلُّل والخضوع حيث يطلب التذلل والخضوع، والصبر على تغيير العادات والمألوفات، والتزام التجرد عن كل مظهر يتنافى مع المساواة بين الخلق، والعبودية لخالقهم جميعاً سبحانه... لعل في ذلك كله ـ وغيره كثير ـ باباً من أبواب التيسير على المسلم كيما يلجَ ـ في جو من حرمة الزمان والمكان ـ إلى ساحة المبرَّات والرَّحمات، هذا المنسك هنا، وذاك المنسك هناك، خصوصاً إذا حرص على أن يكون الأداء على الطريقة التي أداها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حج حجة الوداع وقال صلوات الله عليه وهو يقوم بالمناسك رسولاً مبيناً، وإماماً معلماً: [**لتأخذوا عني مناسككم**].

وإذا كان الأمر كذلك، فما على المسلم إلا أن يَصْدق الله نيته، ويُخْلص إليه قلبه ووجهته، كيما يُكتب له أن يكون في عداد أولئك الذين يحفُّهم الرضا، وتغمرهم محبة الله، فكلما قام بعمل من أعمال هذا الركن العظيم، خطا خطوة مباركة إلى ذلك المقصد المبارك الميمون، وهو في خير،

بدءاً من عزمه على المسير، إلى أن يعود إلى بيته مقبول العمل، مغفور الذنوب، عازماً على أداء ما عليه من حقوق العباد.

ففي الحديث الذي أخرجه الطبراني والبزار من رواية ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن مجيء الرجلين الثقفيِّ والأنصاري إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في مسجد منىً، يقول رسول الله مجيباً الأنصاري عما أراد سؤاله قبل أن يسأل: [...**فإنك إذا خرجت من بيتك تؤمُّ البيت الحرام لا تضع ناقتك خُفَّاً ولا ترفعه، إلا كتب الله لك به حسنة، ومحا عنك خطيئة. وأمَّا ركعتاك بعد الطواف: كعتق رقبةٍ من بني إسماعيل ـ عليه السلام ـ. وأما طوافك بين الصفا والمروة: كعتق سبعين رقبة. وأما وقوفك عشية عرفة: فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة، يقول: عبادي جاءوني شُعْثاً من كل فجٍّ عميق يرجون رحمتي، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل ـ أو كقطر المطر أو كزبد البحر ـ لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم، ولمن شفعتم له. وأما رميُك الجمار: فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات. وأما نحرُك: فمذخور لك عند ربك. وأما حلاقُك رأسَك: فلك بكل شعرة حلقتها حسنة، ويُمحى عنك بها خطيئة. وأما طوافك بالبيت بعد ذلك: فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملَكٌ يضع يديه بين كتفيك فيقول: أعمل فيما تستقبل، فقد غُفِر لك ما مضى**].

وفي شأن استلام الركنين: الحجر الأسود والركن اليماني، وتكفير الخطايا بذلك: أخرج الإمام أحمد والترمذي ـ واللفظ لأحمد ـ عن عبدالله بن عبيد بن عمير ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع أباه يقول لابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ما لي أراك لا تستلم إلا هذين الركنين: الحجر الأسود والركن

اليماني؟ فقال ابن عمر: إن أفعَلْ فقد سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: [**إن استلامهما يُحطُّ الخطايا**]. وفي رواية: [**فإن مسحهما يحط الخطايا**].

وضمن عدد من الأحاديث في فضل ماء زمزم نقرأ ما رواه أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [**ماء زمزم طعام طُعْم وشفاء سُقم**]. وفي رواية [**فإن مسمحها يحط الخطايا**].

هذا قليل من كثير من الآثار الصحيحة الواردة في هذا الباب، ومبتغانا من هذا الذي نثبته هنا، أن يكون لنا ـ نحن المسلمين ـ من الإدراك لعظيم منَّة الله فيما أوجب، ما يجعلنا ـ على صعيد الفرد والجماعة ـ على تفاعل صادق مع الذي شرع الله من أحكام، كيما يكون في ذلك العلاج الناجع للأسباب التي أودت بالأمة إلى ما هي فيه، حتى سلَّط عليها أذلَّ أهل الأرض. فالفرد ـ في تفاعله واستجابته الصادقة للشرعة والأحكام ـ يخرج من ابتلاء الالتزام والتطبيق وهو أكثر صفاءً، وأوفر قابلية لما فيه سعادة نفسه، وتفتُّح قلبه، لما أن أشواقه وتطلعاته قد صادفت موطنها الأمين، ولما أن كأس حبِّه وحنانه قد فاض على الأعتاب في هاتيك الديار دموعاً، لها ما لها في ميزان القبول.

فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: استقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحجرَ، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً، ثم التفت فإذا هو بعمر ابن الخطاب يبكي، فقال: [**يا عمر، ههنا تُسكب العبرات**].

والفرد الذي يُصقَل هذا الصقال في ظل الأوامر والنواهي، يغدو، وهو أقدر بلا ريب، على أخذ مكانه من الصفِّ في خدمة أمته، وسلوك ما، به

يكون لبنة صالحة في بناء الجماعة المسلمة التي تبرهن في فكرها وعملها يوماً بعد يوم، على أنها جديرة بالخطاب القرآني قبل أربعمائة وألف عام ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾.

أما على صعيد الجماعة: فلا والله لن يردَّ الله حجاج بيته خائبين إذا دعوه، ولن يُعْرض عنهم إذا أقلبوا عليه، ولا والله لن يطول الأمد حتى يُمَكِّن لهم الدين، ويبدِّلنهم بعد الخوف أمناً، وبعد ضعفهم قوةً وسلطاناً. ولكن الأمر يكمن في أن تكون الأكف الضارعة صورةً لقلوب أيقنت بالإجابة، وشريكة أيدٍ أسهمت بالعمل والأخذ بالأسباب.

إن الذي ينقص المسلمين اليوم - في كثير من ظواهر المرض في جسم العالم الإسلامي - أن تفيض القلوب بتلك الحرقة الصادقة مما حلَّ ويحلُّ بالأمة من كوارث تذيب الحجر الأصم، أن تكون العيون مؤرقةً تستعصي على الرقاد مما يرى المسلم ويسمع، ويقرع قلبه ولُبَّه صباح مساء، أن تتجافى الجُنوب عن المضاجع، وتهزأ النفوس بالراحة، وتستعلي على طلب العافية، لوناً من ألوان تثبيت الأقدام على أول الطريق، دونما مواربة أو محاورة أو مداورة.

وما كان للمسلمين أن يغفلوا أو يتغافلوا عن الحقيقة التي يجب أن تأخذ حيزها الطبيعي من تصورهم وتفكيرهم، ألا وهي عدم الانفصال أو التجزئة في نظرة المسلم إلى كيان الأمة في الفكر والزمان والمكان.

إن وفود بيت الله ـ في دعائهم وتضرعهم وخشوعهم ودموعهم ـ يمثلون أصدق صورة لإذابة الفوارق أمام العقيدة؛ فالله تبارك وتعالى عندما يستجيب لا ينظر إلى صورهم وألوانهم، ما دامت لغة الإيمان لغتهم، وما دامت القلوب عامرة بالسكينة والنور، مشرقةً بالطمأنينة لصدق وعده سبحانه في إجابة دعوة المضطر وإغاثة الملهوف ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾.

وإذا كانت كارثة الأقصى وما حوله، تنزل بكلكلها الرهيب على صدر هذه الأمة ـ وما أكثر الكوارث في وطننا الكبير ـ فإن رب البيت الحرام الذي تؤمُّه اليوم مئات الألوف، ملبيةً داعيةً مُكَبِّرة، هو رب المسجد الأقصى، فليكن هذا في ضمير المسلم عندما يرفع كفَّيْه بالدعاء. وإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما حدد أفضلية الصلاة في بيوت الله، جعل الأقصى ثالث ثلاثة بعد المسجد الحرام ومسجده هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ، دليلَ ما يجب من التكامل في نظرة المسلم إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، على ما لكل منها من الفضل الذي نؤمن به في حدود توقيف الشارع. هذا إلى أن النظرة إلى البيت العتيق لابد أن تشدَّ المسلم إلى تذكُّر الأقصى مسرى رسول الله ومعراجه.

وحرام أن تكون العبادة في نظر المسلم رسوماً وأشكالاً مقطوعة النسب عن الحياة التي أرداها الله بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾. إن على المسلم التزام كل ما أمر به الشارع، مع تصوُّر سلامة التفاعل بين العبادة وما يمكن أن تؤديه في حياة الفرد والجماعة، بما

يكون من انعكاس آثارها العملية الطيبة على حياة الأمة وواقعها، كيما تكون هذه الأمة في حركة دائبة صاعدة، تنأى بها عن الجمود القاتل، والوقوف الذي لا يعني إلا الموت، ولعلَّ هذا من أسرار قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾.

لقد كان مبكراً تنبُّه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بلاد الشام وما فيها، وما يمكن أن تؤديه رسالة الإسلام على أرضها، حين حمل عبء المسير بجيشه اللجب من الحجاز إلى تبوك؛ وخبرُ الرحلة القاسية العنيدة مأثور ومعروف. فإذا أضفت هذا إلى تجهيزه لجيش أسامة وعقد الراية له بيده، وما كان من قبلُ، من معجزة الإسراء والمعراج في ربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وإمامته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأنبياء فيه أدركت كيف يجب أن يكون دعاء المسلم عندما يدعو رب البيت العتيق والأقصى، وأن الدعاء لابد أن يرافقه العمل.

ثم كيف يفترض أن يكون شعوره عندما يسلِّم على المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الذي بلَّغ الأمانة، وأدى الرسالة، ونصح للأمة، وكان من أمره ما كان مع يهود، ثم ما كان من يقظته النبوية بالنسبة إلى ديار الشام، بجانب إكرامه الله له بمعجزة الإسراء والمعراج.

وعندما يسلِّم المسلم على الصدِّيق أبي بكر لابد أن يذكر صنيعه بجيش أسامة وحرصه على أن لا يحلَّ رايةً عقدها رسول الله ـ مع ما كان من ليل الردة البهيم، وما تطلبت من معارك ورجال ـ حتى كانت واقعة اليرموك التي غادر الحياة رضوان الله عليه ولما تنته بعد.

وعندما يُسَلِّم على الفاروق عمر بن الخطاب، جدير به أن يذكر ما كان من أرقه رضوان الله عليه ومعاناته حتى فتح الله على المسلمين ودخلوا الشام. وليذكر أن الأرض التي صلى عليها هذا الخليفة أمام كنسية القيامة حين لم يرضَ أن يعمل عملاً يمكن أن يؤول إلى ضياع معبد النصارى من أيديهم، ليذكر ما يبيَّت للمسجد الأقصى وأن الأرض المباركة حوله يسرح ويمرح في أرجائها صبية يهود عابثين مستهترين!!

إن أمراً على غاية الأهمية في إيمان المؤمن وصادق نسبته إلى هذه الأمة، أن يكون له مع كل دعوةٍ ذكرى، ومع كل تلبية تجسيداً للحقيقة الماثلة التي تقضُّ بمرارتها مضاجع الرجال، ومع كل دمعة لهفةً على واقع المسلمين، وعزمة إيمانية جديدة على العمل الصادق الصابر المثمر في سبيل الله عز وجل.

وإذا كان هذا على صعيد الفرد، فهو على صعيد الجماعة أكثر أهمية وأشد ضرورة. ألا إن الله سائل هؤلاء المؤمنين الآمِّين بيته الخاشعين في رحابه، داعين مُلبِّين، عن عمل في سبيله، يحرر الأرض ويطرد الغاصبين، ولن يكون ذلك إلا بالحزم الحازم والكلمة الواحدة، والصدق الذي لا يشوبه خداع، والمواجهة الواعية للحقائق بكل ما يمكن أن يكون ثمن هذه المواجهة. وإن عقد الخناصر في رحاب الطُّهر والقداسة حيث البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وحيث مثوى رسول الله، وأصحابه البررة الذين أضاؤوا للإنسانية طريقها بدمائهم وتضحياتهم.. إن عقد الخناصر

هذا جدير أن يعمل عمله، وأن يؤتي ثماره إذا صدقت النيات، واقتُحمت عقبة الأغراض القريبة الفانية التي لا تزن عند الله مثقال ذرة، خصوصاً إذا ذكرنا أن نكبتنا ـ في تقويم صادق ينبعث من العقيدة والواقع ـ هي نكبة الأمة جمعاء على تنائي الديار واختلاف الألسنة والألوان.

ألا إن النسب صادق كريم بين كل مسلم على وجه هذه المعمورة وبين تلك الرمال وذيَّاك الثرى على أرض مقدساتنا، وامتحن نفسك إن شئت!!

إن النسب الكريم إلى الرمال والثرى صورة عن النسب إلى المبادئ التي أثبتت وجودها على هذه الأرض التي انبثق منها نور الهداية، واندفعت من أرجائها مواكب الدعوة، وانطلقت موجات العلم والمعرفة والحق. وما كان لمؤمن ولا مؤمنة أدركوا ذلك تمام الإدراك أن يكون لهم الخيَرة في الموقف الذي تمليه العقيدة وأحكام الإسلام.

ولن يضير هذه الأمة قوة في الدنيا، إذا هي استأنفت الطريق، وراجعت رصيدها بأمانة وثقة، واستمسكت بالحق الذي نزل به الكتاب، وأوضحه بياناً وتطبيقاً نبيها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ألا إن على المسلمين ـ من كُتب لهم الحج، ومن لم يقسم لهم ذلك ـ أن يتخذوا من هذا الموسم المبارك ـ فيما يحمل من قدسية الزمان والمكان، وفيما يمثل من رحلة فيها من الجهاد مثابه يتميز بها المقصِّر من المُدْرك، ويتسم الجميع بمظهر العبودية والمغفرة، وفيما يفيض به من شعائر كلها برٌ وخير ـ نقطة بدء سليمة لاتجاه إيماني سليم، أن يحزموا أمرهم على العمل بما تقتضيه

المناسك والتلبية، في فريضة هي خامس خمسة في أركان الإسلام، أن يتجهوا إلى الله صادقين مبصرين، ودليل صدقهم استقامة على الطريق وأخذ بالأسباب في إعداد صادق بعيد عن الشوائب.

وإن الله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناً، هو القادر أن يهب هذه الأمة اليوم ما وهب أسلافها بالأمس، يوم أنزل فيهم آياته ترسم للطريق البعيدة معالمها، وتضع لها منارها الهادي فقال: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

لا تحزن إنّ الله معنا(*)

كلما دار الزمن دورته، وأطلَّ على الأكوان هلال ربيع الأول.. غمر الكون عطر جديد، لما أن هذا الشهر المبارك يحمل في ناظم ذكرياته مولد سيد العالمين محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، كما يحمل هجرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مسقط رأسه ومرابع صباه (مكة المكرمة) إلى يثرب (المدينة المنورة). ولو كان للزمان أن يقول ما ينبغي أن يقوله لأَسْمَى يوم مولد هذا النبي الهادي: (يوم الإنسان)؛ لأن فيه قد ولد من أعلن برسالته تحرير الإنسان.

ولو كان للإنسانية المكدودة ـ التي يعبث بمقدراتها ومعاني وجودها أكلة لحوم البشر، ولصوص الدماء ـ حريةٌ أن تختار.. لاختارت أن يكون يوم مولد أبي القاسم ـ فداه أبي وأمي ـ في جبين أيامها المذكورة على مدى التاريخ، ولأزاحت من طريقها هذا الغثاء الذي يلبس لبوس العلم حيناً، ويكتسي طيلسان العدالة حيناً آخر، فيجعل من الناس مخلوقات تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتنظر إلى الأمور بمنظار تلوِّنه الأغراض القريبة، والعصبيات المقيتة، والكثير من تسويغ الانحراف والضلالة والتضليل.

نقول هذا، وقد عانت البشرية في رحلتها الطويلة على الآماد ما عانت، وتمثَّلت من التجارب ما تمثَّلت وما تزال.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الأول، السنة العاشرة، ربيع الأول ١٣٨٩هـ، حزيران ١٩٦٩م.

نقوله، ونحن أبعد ما نكون عن إغلاق المنافذ التي تُطلُّ على الواقع، وعن الانحسار إلى حيث تصلُّب الفكر دون الوعي والإفادة من عظات التاريخ، مهما كان لون المسرح الذي درجت على مرابعه الأحداث، وتحركت الوقائع...

إن نظرة واحدة تتَّسم بمنهجية لا تطغى عليها همجية، وعلمٍ لا يخضعه سلطان جاهل أو بغي ظالم، وتجرُّد لا تنحط بكرامته العصبيات والأغراض والأهواء.. إن نظرة واحدة على هذه الشاكلة، تجعل من مولد الرسول وأذان رسالته ـ كما هي الحقيقة ـ عنوان ضياء يحمل كل ملامح الفجر الجديد لما تعانيه الإنسانية في ظلامها الدامس الطويل.

فإذا توافرت هذه النظرة المجردة من أعدائنا، خلية عما قد يشوب من حقد السنين، وغطرسة السبق المادي والانتصار، فلابد ـ لتستقيم الأمور ـ أن يرافقها أمر هو أكثر منها أهمية، وأشد منها خطراً في ميزان القلق على مصير الأمة، والحرقة على أن تستأنف طريقها من جديد.. ذلكم هو الاعتزاز الذاتي من قبل أنفسنا بكل مقومات الرسالة التي جاء بها صاحب هذا المولد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ذلك الاعتزاز الذي إن توافر بحق، حال دون الانهزام الداخلي في تصورات الفرد وسلوك الجماعة، وحمل على العمل الجادِّ المثمر في ظل مبادئ الأمة ومنهج رسالتها القويم.

وإذا كنا نقول هذا عن يوم المولد، فلما أنه قد شرف بشرف مَنْ أكرم الله الإنسانية به، فكان رحمة للعالمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولكن يظل

يوم المولد ـ على شرفه وكرامته السامية الرائعة ـ فاتحة الخير لما كان على الساحة العملية الإيجابية في حياة أمتنا التي أسعدها الله برسالة كانت رسالة الحياة والإيجابية والبناء، على طريق تنطلق من الإيمان والصبر والجهاد، وتنتهي بالفوز الكبير في الدنيا والآخرة.

وتستبين معالم الخير، ويأتي يوم الهجرة الذي كان الحلقة الكريمة ـ التي تمثِّل حركية الدعوة بأجلى معانيها وأغلى مظاهرها ـ بعد سابقتها الأولى التي كانت يوم بدء الوحي، وتقليده ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمانة النذارة والتبليغ.

ولا نعني هنا ـ الهجرة من حيث هي ـ فقد ضحَّى المسلمون من قبل، وهاجروا بأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سبيل الله، تاركين ديارهم وأموالهم وذويهم أكثر من مرة، ولكن نعني الهجرة التي كان هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رأس المهاجرين فيها، تلك التي كانت من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، والتي هي المرادة عند الإطلاق.

وكون الهجرة بهذه المثابة، إعلان حركة، وحلقة بارزة من حلقات سير الدعوة في طريقها الشائك الصاعد المرير.. وعنوان تحوُّل إلى أرض كانت أصلح للغرس، بعد سنين طويلة من الهول في مكة، ورحلة صابرة باكية إلى الطائف.. أقول إن كون الهجرة بهذه المثابة، في أذهان أولئك البررة من أصحاب النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، هو الذي دعا إلى بدء تاريخ الإسلام بالهجرة، وسَعِد العالم بالتاريخ الهجري، حيث أعلن ذلك الخليفة

الثاني عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ، وأجمع معه المسلمون. ولولا ذلك، لرأينا البدء بالمولد مثلاً، ولكن الأمر منوط بما كان من وعي تلامذة الوحي للحركية التي تتمثل في الهجرة من بلد الكفر، حيث يفتن المسلمون عن دينهم، وتوضع كل العقبات في طريقهم، وتسلك كل السُّبل الكافرة لإفنائهم والقضاء عليهم، إلى البلد الذي استطاعوا أن يتجمعوا على أرضه، ويغرسوا في منابته بذرة الهدى والخير، وأن يشكّلوا مجتمعاً كان خير صورة لخير دولة عرفها بنو الإنسان، لما أن شريعة الله هي التي تحكمه، ويد محمد بن عبدالله الصناع ثم أصحابه من بعده هي التي تقوده، وتقدم إلى الدنيا كلها أنموذجاً يحتذى، وعنوان خير يستضاء بنوره، وتسير قوافل الحق والخير على هداه.

ولئن كانت كل مراحل الهجرة، بدءاً من أسبابها الحركية الإيجابية، إلى نتائجها الواقعية العملية في تثبيت دعائم الإسلام، وتأمين انطلاقته في العالمين.. مع غاية تتقطع دونها الأماني بهذه المثابة.. إن الذي تقتضيه الأمانة أنّ هذه الأمة التي تربطها بهذا الحدث الفريد في روعته وجلاله، أكرم أواصر النسب والقربى، أن تكون على مستوى الفهم العميق، والإدراك الواعي لمدلولات كل الوقائع التي تنتظمها الهجرة، خصوصاً ما كان منها على صعيد المعاناة البشرية، وانعكاسات صورة الإنسان ـ كما أراد الله له أن يكون ـ على العمل الذي يكاد يكون فوق طاقة البشر.

وحسبك أن تصيخ بسمعك، إلى قول الله تعالى في سورة التوبة ـ والحديث عن الجهاد ونصرة رسول الله: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ لترى واحداً من مشاهدة الهجرة، الذي ضربه الله مثلاً للمسلمين من واقعهم التاريخي، ذلك المثل الذي يشهد لنصرة الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بلا عون منهم ولا تأييد، دليل أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء، وأن العُدة المادية لا غناء فيها للمسلمين إن لم يصحبها عون الله وتأييده ونصره.

ولسنا الآن بسبيل أن نعرض لسياق وسباق هذه الكلمات المباركات في الآية، ولكن حسبنا أن نعلم أن هنالك دعوة إلى الجهاد لإعلاء كلمة الله، وعتاباً لأولئك الذين تثقلهم شؤون الدنيا عن أن ينفروا خفافاً في سبيل الله، وضرباً لمثل الهجرة ونصر الله لنبيه وصاحبه الذي كان معه، وكيف جاء وعد الله للمؤمنين بأحسن العواقب إن هم التزموا صدق التوجه إليه؛ تلك الآيات هي قوله تعالى: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.

والذي يعنينا الآن: هذا الذي حكاه القرآن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾.

فبهذا اللفظ من درر الخلود، وبتلك الحبَّات من نفحات القدس، أجاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كلام صاحبه في الغار عندما قال أبو بكر رضي الله عنه ـ وقد حزن لا على نفسه، ولكن على رسول الله أنْ يَطَّلع

عليهما المشركون، فيخلصوا إلى صاحبه وهاديه الحبيب ـ: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا . . من أجل هذا قال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: [**لا تحزن**] ولم يقل: لا تخف.

ألا إن رحاب تلك الكلمات النورانية، تستعلي في مدلولاتها وآفاقها على الحصر. وإنا نذكرها حكاية قرآنية لنطق سيد المهاجرين ـ صلوات الله عليه ـ، في ساعة اشتد فيها الكرب، وكادت تقع الواقعة، وأصبح الخطر من الرسول وصاحبه قاب قوسين أو أدنى. نذكرها في جوها وأسبابها، ونذكرها في مدلولها والآفاق التي تعبر عنها، كما نذكرها فيما هي انعكاس صادق لواقع النفس الإنسانية في الإنسان وهو إنسان، وإشعار بما ينبغي أن يكون عليه المؤمن ـ وسهام البلاء تنوشه من هنا وهناك، والرزايا تسدُّ عليه منافذ الحياة ـ من صلة بالله عز وجل. فالله هو النصير، والله هو الظهير، والله هو القاهر فوق عباده. يهدي إلى ذلك ـ بمزيد من التأكيد والوضوح ـ قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، مخاطباً الصدِّيق: [**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**].

والنهي عن الحزن في ﴿ **لا تحزن** ﴾ ليس عبثاً، إنه دليل أن هنالك استعداداً لهذا. فهو من صفات هذه النفس البشرية. ولأمر ما جاء القرآن الكريم في عديد من المواطن على إكرام الله لعباده الصالحين يوم القيامة بأنه ﴿ **لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾، وإن كان مبعث حزن أبي بكر هنا ـ كما أسلفنا ـ خوفه على صاحبه الحبيب أن تطوله يد الظلمة أعداء دعوة الحق ورسالة الإسلام. ورسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه، وهو الناصح الأمين ـ

على معرفة بهذا الواقع في نفس الإنسان، وإنه بما علَّمه الله، لذو علم بالكيفية التي يرتفع فيها بأبي بكر صاعداً في معارج الرقي الذاتي والصفاء النفسي، فتراه يأخذ بيده من ذلك الواقع إلى رحاب أوسع وأشمل، فلماذا الحزن والله معهما بعونه وتأييده ونصره، والله معهما بما يهب النفس من الطمأنينة، وما ينزل في القلب من السكينة؟! ولماذا القلق والله ثالث المهاجرين، سيد الأنبياء وصاحبه الصدِّيق؟! . إنها وأيم الله نقلة عُلوية رائعة وصلت أسبابها تلك اليد الصناع التي مدَّها رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ لأبي بكر أخيه وصاحبه، فأسباب الحزن متوافرة، والشِّدة الشادَّة تضرب بكلكها هنا وهناك، وليس بين سيد العالمين وصاحبه وبين الخطر الداهم إلا أن ينظر واحد من المشركين الذين دهموا الغار إلى أسفل قدميه . . .

غير أن ذلك كلَّه لا يضير، فالأمر أوسع من أن يوزن بالكفاءة المادية والأخذ بالأسباب الظاهرة وكفى، إنه وراء ذلك وفوق ذلك؛ فكون العدو المشرك ربيب اللات والعزى، وعابد هُبل ومَنَاة، قد تجمعت له عوامل البطش والتنكيل، وتوافرت تحت سلطانه كل أسباب الصدِّ عن دعوة الحق، وفتن المؤمنين عن الدين، لا يعني بحال من الأحوال، أن يلقي المؤمن عصا الجهاد عن عاتقه ويستسلم لليأس؛ فالله معه، والله في عونه ما كان مستقيماً على الطريقة، صادقاً فيما عاهد الله عليه.

ولقد يحسب حاسب أن هذه دعوة تقلِّل من شأن العمل والأخذ بالأسباب، وليس الأمر كذلك، فسياق الآيات ـ كما سبق ـ دعوة إلى

الجهاد ـ، وتحريض على القتال، وعتب على المتثاقلين عن النصرة خفافاً وثقالاً في سبيل الله، فإن لم يستجيبوا لذلك فالله ناصر نبيَّه، دون حاجة إلى هؤلاء المتثاقلين، فلقد نصره في هجرته وهو على وضع غير متكافئ على الاطلاق مع العدو ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ**..﴾. ولكن وعد الله لا يتخلف ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ وأخذ العدة لا يجوز أن يكون حجاباً عن الاستعانة الصادقة بالله عز وجل، وطلب عونه وتأييده في كل حال. لأن في كلٍ من أخذ العدة وطلب العون من الله طاعةً له سبحانه.

والذي يحسبه هذا الحاسب: يدفعه من وجه آخر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [**لا تحزن إن الله معنا.. يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**]. وهو في قمة العمل والأخذ بالأسباب، والعدو يلاحقه في السهل والجبل، بل يتبع أثره وأثر صاحبه. حتى هذا الغار المقفر الموحش الذي لا عهد للناس به، إلا أن يكون ذلك من زمن بعيد.

قال: [**لا تحزن إن الله معنا**] وهو ممسك بالأسباب، آخذ بالمقدمات التي تتصل بالنتائج، مرتفع فوق متكآت الراحة، ومنافذ العافية، والانعتاق من المسؤوليات. نعم.. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: [**لا تحزن إن الله معنا**]... قالها وهو ينتزع من نفس أبي بكر آثار ضعف الإنسان في الإنسان، وما يكون من نتائج استعداد البشر للانحناء أمام قوة غاشمة، أو سلطان فاجر. قالها وهو مهاجر يشهد لصدق هجرته في سبيل الله الجبال والسفوح والشعف ومعها الوديان والقيعة والسهوب، كما تشهد له كل حبة رمل

احتضنتها الصحراء، وكل لفحة من لفحات الهجير، [**لا تحزن إن الله معنا**] والضنى في كل لحظة، والتعب مع كل متقلَّب في الليل والنهار، والترقب مع كل لفتة من لفتات الزمن وكل عين من عيون الصحراء.

لقد اتسعت مكة للناس كل الناس، من أهلها والوافدين إليها يومذاك، ولكنها ضاقت بدعاة الحق الذين شرع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصوغهم برسالته الجديدة في مواجهة الباطل على كل أرض وتحت كل سماء، صياغة كانت ـ بحكمة الله ـ استجابة طبيعية لأنين الإنسان عبر القرون، وهو يشكو من ظلم أخيه الإنسان، ولصرخة الحق وهو ينادي من يأخذ بناصره من العادين عليه.

وأمر آخر: [**لا تحزن إن الله معنا**] دليل أن بناء الذات ممكن من الأعماق إذا سعد القلب بصدق «إن الله معنا».

لقد كان رسول الله يخاطب الذات في أعماقها، في كينونتها، وفي وجودها.. إن نفس أبي بكر البشرية تحمل استعدادها للتعب والحزن، ولكن ذات الإنسان في أعماقها وكما خلقها الله مؤهلة لأن ترتفع على الطين، وتسمو إلى حيث تستشعر عظمة الله، وسلطانه القاهر، وكونه أكبر من كل المعوقات، ومن كل رغبة أو رهبة.

لقد كان أبو بكر الصدِّيق ـ ورسول الله أحبُّ إليه من نفسه ـ على مستوى البناء الذي عانى تكوينه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكلتا يديه، وكان على مستوى تلك الرحلة العظيمة التي كانت في ظاهرها قطع مسافة بين

مكة والمدينة، وعلى طريق مقفرة موحشة يسترها ظلام الليل، وتختبئ من ضوء النهار.. ولكنها في حقيقتها مرحلة من مراحل نصر الإنسانية العظيم.

وكم هي ماسَّةٌ حاجةُ أمتنا اليوم لشعار «لا تحزن إن الله معنا»، وهي تعاني من ذلك الدبيب العاتي على النفوس، يرهقها ويحاول تجريدها من مقومات الذات، وعناصر الوجود والتكوين.

كم هي ماسَّةٌ حاجةُ أولئك الحداة على طريق الجنة، في ضوء ذلك الشعار، أن يتأهبوا للتمحيص يصقل النفوس، ويشعر بأصالة الذات، ويحرق من طريق الداعية كل العوائق الترابية، التي يلقيها أفعوان حب السلامة بين يديه.

«لا تحزن إن الله معنا» ليست ـ أيها الرواد ـ لأبي بكر وحدَه.. ولكنها لكم جميعاً في قافلةٍ أمسك بزمامها أبو بكر وراء رسول الله، وهي بعون الله وتأييده تتابع المسير، والله معكم ولن يَترَكُم أعمالكم.

إنا لله وإنا إليه راجعون(*)

على مثل جمر الغضى يمسكني القدر المحتوم لأخط هذه السطور المتواضعة في مفتتح العدد الحزين الباكي من مجلة «حضارة الإسلام».

وتأتي تلكم الكلمات بعد معذرة وعلى استحياء، لتشعر بمسؤولية الوفاء بمتابعة الطريق، طريق الاستاذ الرائد، والعالم الصابر المجاهد، الدكتور مصطفى السباعي - يرحمه الله - في هذه المجلة.

فلقد كانت الأعداد الماضية - وليتها لم تنقطع عن الأمة أسبابها - يزينها - وهي في حرارتها ومضائها - فكره المؤمن المستنير، وقلمه الصادق المعبر، وأسلوبه البارع الموجه.

أما هذا العدد: فيوشحه سواد الألم، وتبلله دموع اللوعة، وتحركه خفقات القلوب، القلوب التي هزتها يد الفاجعة، فحركت كوامنها واعتصرتها حتى الثُمالة.

ومن ذا الذي يزعم لنفسه أن الفراغ الذي تركه مصطفى السباعي في هذه الساحة يمكن أن تملأه كلمات تكتب كل شهر، وقول يدفع إلى المطبعة بين الحين والحين؟!

ولعل خير ما يذكر أمام هذه الحقيقة قول رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -: [**إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة**].

(*) افتتح بها العدد الخاص الذي أصدرته «حضارة الإسلام» عن منشئها الشيخ الدكتور مصطفى السباعي، بُعَيد وفاته، أجزل الله مثوبته، ويشمل هذا العدد الخاص: الأعداد (الرابع، الخامس، السادس)، السنة الخامسة، جمادى الآخرة ورجب وشعبان ١٣٨٤هـ، تشرين الأول والثاني وكانون الأول ١٩٦٤م.

ولكنه الحرص الصادق على أن تستمر هذه المجلة فلا تتوقف، وأن يتصل حبلها بأسرتها الكبيرة من القراء فلا ينقطع؛ أداءً لرسالة الإسلام والمعرفة، ووقوفاً عند أمر الله في أن يؤدي العالِم الأمانة، ولا يكتم ما أنزل الله.

ولقد كنت وما زلت أعتقد أن هذه الطريق التي رسم معالمها مصطفى السباعي، وغذاها بروحه وأعصابه وأثمن ما لديه من مواهب وطاقات: تفتقر - بعد الاستعانة بالله - إلى تعاون القلوب المؤمنة، والعقول الواعية والنفوس المدركة. وإن عناية الله معنا إذا كنا أمناء على متابعة السير بوعي صادق وإدراك سليم.

لقد علمتنا عقيدة الإسلام أن الخلود لله عز وجل، وأن كل من عليها فان. وإن كتاب الله ليعد بحسن الصبر عمن نفقد، حسنَ العوض منه، وإنا لنستنجز الله وعده أن يهبنا - ونحن الضعفاء - قوة من عنده ورحمة من لدنه.

ألا وإن أعلام الأمة امتحان لأبناء الأمة، وحجة الله على عباده في مقدار استمساكهم بحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكل واحد من هؤلاء الأعلام بشر من البشر، ولكنه تعالى على حطام الدنيا، وارتفع فوق ترابها وشهواتها فكان المنار الهادي والقدوة الأمين.

وما أبو حسان - طيَّب الله ثراه - إلا واحد من هؤلاء الأفذاذ، فقد حمل راية العلم والجهاد صادقاً مخلصاً، وصبر على البلاء وصابر، حتى اختار الله له ما عنده وقبضه إلى رحمته.

وإذا كانت هذه المجلة في المقام الأول من الاهتمام عند الفقيد، يوم كان بيننا، فهو بها حفي أكثر من المال والولد، فإن الوفاء يقتضينا أن نجدد العهد على أن تتابع المجلة طريقها، بالفكرة الواعية، والكلمة الطيبة، على هدي المعالم التي رسمها الأستاذ السباعي لخدمة دعوة الإسلام في رسالته الإنسانية المثلى.

فاللهم أمطر فقيدنا العظيم وابل رحمتك ورضوانك، وأنزل السكينة في قلوبنا حتى نبصر المعالم فلا نتعثر، وهبنا من فضلك وعنايتك حتى تقوى سواعدنا على حمل الأمانة فلا نزلَّ، وارزقنا إخلاصاً في العمل، وصبراً على وعورة الطريق، واجعلنا في مرضاتك على كل حال.. والحمد لله رب العالمين... وإنا لله وإنا إليه راجعون.